

القاضي عبدالرحمن بن حسن البهكلي

وكتابات التاريخية (١١٤٨ - ١٢٢٤هـ)

الدكتور هاني زامل مهنا *

تتناول هذه الدراسة حياة القاضي عبد الرحمن بن حسن البهكلي ومؤلفاته التاريخية، والتي اقتصر على عملين أساسيين هما : كتاب (خلاصة العسجد في دولة الشريف محمد بن أحمد) ، وكتاب (نزهة الظريف في حوادث دولة أولاد الشريف) . وقد أستهلت هذه الدراسة بالحديث عن أسرة البهكالة ومكانتها العلمية والاجتماعية في المخلاف السليماني ومن ثم الحديث عن القاضي عبد الرحمن : حياته، وتعليمه، والمناخ الفكري والسياسي الذي عاش فيه . وقد ركزت هذه الدراسة على عملي القاضي عبد الرحمن التاريخيين من حيث المنهج الذي اتبعه القاضي في تأليفهما، وأسلوب الصياغة الأدبية ؛ إضافة إلى المصادر التي استقى منها القاضي عبد الرحمن معلوماته الواردة بين دفتي كتابيه. وخلصت الدراسة إلى مدى أهمية مؤلفي القاضي عبد الرحمن التاريخية، إذ إنهما شاهدا عصرهما من حيث رواية الأحداث، وصياغتها لغوياً وأدبياً .

* بكالوريوس في التاريخ من جامعة الملك عبدالعزيز سنة ١٩٧٥ م .
- ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة ولاية كاليفورنيا / شيكو (Chico) سنة ١٩٨٠ م .
- دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة دُرم بإنجلترا (Dorham) سنة ١٩٨٦ م .
- يعمل الآن أستاذاً مساعداً بقسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز بجدة .

أسرة البهاكلة :

إن أول ذكر لهذه الأسرة في أدبيات المخلاف السليماني ، ما أورده مؤلف العقيق اليماني عن شمس الدين أحمد بن مهدي البهكلي . حيث ذكر المؤلف أن شمس الدين أحمد كان فقيهاً عالماً أديباً لودعياً مصقاً . تفقه وتأدب بالجدال ثم لازم بيت الشريف بمكة وتردد من مكة إلى المخلاف ونال من أعطيات أشرف مكة حظاً كبيراً ، ومات سنة ١٠٣٨ هـ^(١) . وما يلفت النظر في هذه الترجمة اختصارها وغموضها ؛ فجل ما نعرفه عن مصادر علم هذا الفقيه الأديب ، أنه تفقه وتأدب بالجدال ، ولا نعلم أي جدال يعني صاحب العقيق على وجه التحقيق أي جدال المخلاف ؟ أم المناطق الجبلية باليمن ؟ والأرجح عندنا أنه قصد هنا المناطق الجبلية باليمن والتي كانت بمثابة مراكز علمية مرموقة كجبل كوكبان ، وثلا ، وصعدة وصنعاء .

وتشير المصادر التي بين أيدينا إلى أن موطن أسرة البهاكلة الأصلي هو هجرة ضمد إحدى قرى المخلاف السليماني ، ويرى العقيلي استناداً إلى ما ورد في مخطوط الجواهر اللطاف ، أن اسم البهاكلة ربما يكون نسبة إلى قرية صغيرة شمال بلاد المسارحة على عدوة وادي (امرياح) الرياح شرق قرية الجفادمة تسمى البهاكلة^(٢) ، وبرجعنا إلى معاجم المخلاف السليماني الجغرافية الخاصة ، والمراجع الجغرافية العامة لم نتمكن من تحديد الحقبة الزمنية التي ظهرت فيها هذه القرية ، أي سابقة أم لاحقة لظهور أسرة البهاكلة على مسرح أحداث المنطقة ؟ . الأمر الذي يبرر لنا الافتراض بأن هذه القرية إنما ظهرت تبعاً لسكن البهاكلة فيها . ويعزز هذا في رأينا ما ذهب إليه أحد أفراد هذه الأسرة^(٣) من أن كلمة بهكلة إنما هي تصحيف (بهكنة أو بهكنة) وهي كلمة تعني المرأة الجميلة الناعمة) يقول الشاعر :

(١) عبد الله بن علي النعمان . العقيق اليماني في وفيات المخلاف السليماني ، مخطوط مكتبة جامعة الملك عبد العزيز رقم ٣٦٤ ، ص ٣٧١ .

(٢) محمد بن أحمد عيسى العقيلي . المعجم الجغرافي لمنطقة جازان - الرياض ، ١٣٩٩ ، ص ٥٠ .

(٣) لقاء شفوي مع السيد حسن البهكلي وكان يعمل بوزارة الداخلية ومقيماً بمدينة جدة .

"بهاكنة غضة بضة برود الشنايا خلاف الكرى" (١).

وأن جدّ هذه الأسرة أو أحد أجدادها كان مشهوراً بالجمال فأعطي هذه النسبة ومع مرور الزمن غلبت النسبة على اسمه الأصلي فأصبحت لقب الأسرة المعروف الآن. وما يلفت النظر في هذه الترجمة أيضاً اسم وكنية صاحب الترجمة ، فالاسم كما ورد في العقيق هو شمس الدين بن أحمد البهكلي أي أن شمس الدين كنية لاسم سبق أحمد بينما يذكر العقيلي أن الاسم هو شمس الدين أحمد ، أي أن الكنية مرتبطة بالاسم أحمد ، وإن كنا نغفل إلى ما يراه العقيلي وأن ما ورد في العقيق بنسخه المختلفة ربما يكون من أخطاء النساخ ؛ إلا أننا لا نستطيع أن نحزم بحقيقة ذلك .

لقد كان شمس الدين أحمد البهكلي كثير التردد على أمراء مكة وقد أصاب منهم خيراً كثيراً كعادة النابهين من العلماء في شتى العصور والبقاع . ومعروف أن هذا النوال اختص به هذا العالم من بين علماء الأسرة التي امتدت مسيرتها ومشاركتها العلمية في المخلاف لأجيال عديدة بعد وفاة الفقيه شمس الدين أحمد ابن مهدي البهكلي ، حيث إن علماء الأسرة اللاحقين زمنياً للفقيه أحمد، كان اتصالهم بعلماء اليمن وحكامه أكثر من اتصالهم بالحجاز .

ولعل سبب هذا التحول يكمن في : أن الفقيه أحمد بن مهدي قد عاش في حقبة غلبت عليها حروب اليمنيين وثوراتهم ضد العثمانيين في اليمن ، وقد استمرت هذه الحروب حتى زوال الحكم العثماني عن اليمن سنة ١٠٣٥هـ - ١٦٣٥م ، الأمر الذي أدى إلى اضطراب أمني ألقى بظلاله على الحياة الفكرية والاقتصادية بالبلاد . أما وقد انتهت هذه الحروب وازدهرت الحياة العلمية باليمن فمن البدهي أن يعاود أفراد هذه الأسرة توثيق صلاتهم بالمناطق اليمنية ، حيث بلغت الدولة الزيدية أوج استقرارها وازدهارها إبان حكم

(١) محمد بن منظور . لسان العرب، ج١٣ - بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧، ص ٦٠.

الإمام إسماعيل بن القاسم ١٠٥٤-١٠٨٧هـ / ١٦٤٤-١٦٧٦م.

لقد أدت هذه الأسرة دوراً كبيراً في الحياة العلمية بمنطقة المخلاف السليمانى خلال القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر الهجرية، من خلال بعض من انتسب إليها من أفراد اشتهروا بالمكانة العلمية المرموقة؛ هذه المكانة التى تعدت إقليم المخلاف السليمانى إلى سائر المناطق وبعض أجزاء اليمن. فمن هؤلاء على سبيل التمثيل لا الحصر على بن عبد الرحمن بن حسن البهكلى (١٠٧٣-١١١٤هـ) ، مؤلف كتاب : «العقد المفصل بالعجائب والغرائب» . حيث يعد كتابه هذا من أهم كتب المدونات التاريخية - إن لم يكن أهمها على الإطلاق - التى تعنى بتاريخ مرحلة مهمة من تاريخ المنطقة^(١)، ومنهم الحسن ابن على بن حسن البهكلى (١٠٧٧ - ١١١٥هـ) ، وقد ذكر صاحب الخلاصة أن له تاريخاً منظوقاً فى حوادث أيامه . أما مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن البهكلى (١١٤٨ - ١٢٢٤هـ) فسنوجل الحديث عنه إلى مرحلة لاحقة من هذا البحث . ومن هؤلاء العلماء الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن بن على البهكلى (١١٨٢-١٢٤٨هـ) مؤلف كتاب : «نفع العود فى سيرة الشريف حمود» ، الذى يعد المصدر الأساس لحقبة حكم الشريف حمود بن محمد بن أحمد بن خيرات ، إلى غير هؤلاء ممن أنجبته هذه الأسرة من العلماء ولا مجال لإحصائهم فى هذا السياق .

لقد تولى العديد من أبناء هذه الأسرة القضاء فى مدن مختلفة من مدن المخلاف السليمانى . فقد تولى الشيخ الحسن بن على بن الحسن بن أحمد البهكلى (سابق الذكر) القضاء فى جيزان وصيبا ومن ثم أبى عريش . وتذكر المصادر التى بين أيدينا أن لهذا القاضي إضافة إلى ما سبق شأنًا ملموساً فى إدارة الحياة السياسية فى

(١) عبد الرحمن بن حسن البهكلى . «خلاصة العسجد فى دولة الشريف محمد بن أحمد» ؛ تحقيق هاني مهنا ، جامعة درم ، ١٩٨٦ ، ص ٣-٥ .

المنطقة^(١) . كما تولى القضاء بأبي عريش والد مؤرخنا الشيخ حسن بن علي البهكلي ليخلفه في هذا المنصب محمد بن علي بن عبد الرحمن البهكلي^(٢) ، ومن ثم مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن البهكلي . كما تولى الشيخ أحمد بن الحسن بن علي البهكلي وظيفة القضاء بصبيا ، ثم ببلده الزيدية^(٣) ، وكان هذا الأخير محل ثقة أولي الأمر ، حيث كلف بعقد صلح بين الشريف أحمد بن محمد بن أحمد آل خيرات وبين زعيم يام الحسن بن هبة الله المكرمي ، كما تولى الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن بن علي البهكلي قضاء مدينة بيت الفقيه ابن عجيل سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٦م^(٤) ونخلص من هذا بأن أسرة البهكلة قد شغلت مكانة اجتماعية مرموقة في إقليم المخلاف السليمانى خاصة وإقليم تهامة بصفة عامة من القرن الحادى عشر الهجرى وحتى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى .

الأجواء السياسية والفكرية التي عاش فيها المؤلف :

لقد تزامنت هذه المكانة المرموقة لأسرة البهكلة مع مرحلة الهيمنة الزيدية على الأجواء السياسية والثقافية الفكرية في جنوب غرب الجزيرة العربية بصفة عامة . فقد تمكن الأئمة الزيديون في عهد الإمام محمد بن القاسم (١٠٢٩-١٠٥٤هـ / ١٦٢٠-١٦٤٤م) ، من إخراج العثمانيين من اليمن سنة ١٠٥٤هـ / ١٦٣٥م . وقد تبع ذلك سيطرة الدولة الزيدية على معظم أرجاء اليمن . ويثل عهد الإمام إسماعيل بن القاسم (١٠٥٤-١٠٨٧هـ /

(١) عبد الرحمن بن حسن البهكلي . مرجع سبق ذكره ، ص ٢١ .

(٢) عبد الرحمن بن حسن البهكلي . مرجع سبق ذكره ، ص ٨٣ .

(٣) عبد الرحمن بن حسن البهكلي . « نزهة الظريف في حوادث دولة أولاد الشريف » ، مخطوط ، المكتبة العقيلية جازان . ص ٤٨ .

(٤) عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن البهكلي . « نفع العود في سيرة دولة الشريف حمود » ؛ تحقيق محمد بن أحمد عيسى العقيلي . - ط ٢ - ١٤٠٦هـ ، ص ٧٧ .

١٦٤٤-١٦٧٦م) المدى الأعلى لازدهار هذه الدولة، حيث اشتملت دولته على مناطق وسط الهضبة ، إضافة إلى المناطق الجنوبية والشرقية والتهائم . وقد رافق هذا الاتساع الجغرافي ازدهار اقتصادي وأمني ؛ على أن دولة الزيدية هذه سرعان ما أخذت في الانحسار بعد وفاة الإمام إسماعيل ، حيث شهدت أواخر حقبة حكم خلفه - والتي لم تستمر أكثر من خمس سنين - شيوع الفوضى والاضطراب في أرجاء الدولة. وقد ساعد انشغال الطالبين للإمامة بالصراع فيما بينهم على ازدياد ضعف الدولة للحد الذي أدى إلى انفصال المناطق الجنوبية والشرقية عن جسدها سنة ١٠٩٤هـ / ١٦٧٩م في عهد الإمام المؤيد الصغير محمد بن المتوكل . ولم تأت سنوات إمامة المنصور بالله الحسين بن القاسم - وهو الإمام الذي عاصره مؤلفنا القاضي عبد الرحمن بن حسن البهكلي - إلا وكانت المناطق الجنوبية والشرقية قد خرجت حقيقة عن دائرة سيطرته المباشرة . فقد نجح أمير الحج ١١٤٥هـ / سنة ١٧٣٢م بعد تحالفه مع سلطان يافع من السيطرة على الحج ومد سلطانه إلى عدن فخرجت كلتا المنطقتين عن حوزة الإمام . ومن المعروف أن إقليم حضرموت كان سابقا في الانفصال وذلك عندما تحالف أميره الكثيري بدر بوطويق مع سلطان يافع العليا سنة ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م . أما منطقة المخلاف السليماني فقد كان الشريف محمد بن أحمد بن خيرات هو الحاكم بها ، وقد كان هذا الشريف يمارس حكمه في المنطقة بشكل منفصل حقيقة عن أي سلطة خارج الإقليم يساعده على ذلك ماكانت عليه منطقة جنوب غرب الجزيرة العربية بصفة عامة واليمن بصفة خاصة من ضعف سياسي في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي .

وقد تزايدت قوة الشريف محمد في المنطقة عندما نجح في السيطرة على صبيا وانتزاعها من يد السادة الخواجيين ، واستمرت الأوضاع السياسية في المنطقة على ما هي عليه حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ؛ إذ دخلت منطقة المخلاف السليماني منعطفاً جديداً وذلك بوصول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إليها ، وما تمخضت عنه هذه

الدعوة من دخول منطقة المخلاف كافة تحت الحكم السعودي الأول .

وعلى الرغم من تدهور الأوضاع السياسية في جنوب غرب الجزيرة العربية بصفة عامة وبلاد اليمن بصفة خاصة؛ فقد شهدت المنطقة عموماً نشاطاً ثقافياً وعلمياً زبدي المنزع ، وكانت مراكز الإشعاع الثقافي الزبدي المتمثلة في صنعاء ، صعدة ، بلاد الشرف ، هجرة كحلان ، هي المراكز الثقافية التي يؤمها في الغالب طالبو العلم من منطقة المخلاف السليماني ؛ لذا فمن المقبول عقلاً أن يكون الفكر الزبدي هو الأكثر وضوحاً وتأثيراً في المنطقة ، وأن يكون شيوخ العلم الزبديون هم الأكثر بروزاً على الساحة في علوم الفقه واللغة وغير ذلك من العلوم، مع اعترافنا الكامل بأن المذهب الشافعي هو الأكثر شيوعاً في منطقة تهامة وأن زبب وبين الفقيه وغيرهما من المدن التهامية كانت مراكز إشعاع الفكر الشافعي في المنطقة ، وأن الفقه الشافعي كان الأكثر انتشاراً في تهامة .

القاضي عبد الرحمن بن حسن البهكلي : حياته، تعليمه، مذهبه .

في هذه الأجواء الفكرية - زببية التأثير - ظهر مؤرخنا القاضي عبد الرحمن بن حسن البهكلي - فكان مولده سنة ١١٤٨ هـ / ١٧٣٥ م ، فأخذ عن علماء عصره من علماء هجرة ضمد في علم الفروع والنحو والصرف^(١) وبرع فيها ثم ارتحل إلى مدينة زبب حيث لازم فيها السيد محمد بن أحمد الحازمي^(٢) فقرأ عليه شرح الأزهار^(٣) ، كما أخذ عن الحافظ سليمان بن يحيى والشيخ المحقق عبد الخالق بن علي المزجاجي. كما كاتب السيد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني واستجاز منه (ولم يزل يترقى إلى المعارف

(١) محمد بن محمد زباره . «نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر» - بيروت : دار العودة ، ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) الحسن بن أحمد عاكش . «عقود الدرر في تراجم القرن الثالث عشر» ، مخطوط ، مكتبة إسماعيل بن محمد البشري الخاصة ؛ ص ٩٣ ب ، ٩٤ أ .

(٣) عبد الرحمن بن حسن البهكلي . «خلاصة المسجد في دولة الشريف محمد بن أحمد» ، ص ١٤٧ .

العلمية حتى فاق الأقران بالتحقيق في العلوم النقلية والعقلية ، وصار المشار إليه بالبنان في هذه الديار اليمنية^(١) .

لقد تولى القاضي عبد الرحمن بن حسن البهكلي القضاء في أبي عريش ؛ إلا أن المصادر التي بين أيدينا لا تحدد تاريخاً دقيقاً لتولي القاضي عبد الرحمن وظيفة القضاء ، كما أنها لا تحدد حقبة ابتعاده عنها . وجل ما ذكرته هذه المصادر أن مؤلفنا كان قاضياً لأبي عريش وجهات المخلاف خلال عهد الشريف محمد بن أحمد ، الذي استمر قرابة ثلاثين عاماً (١١٥٤ - ١١٨٤ هـ ١٧٤١ - ١٧٧٠ م) . غير أننا نستطيع أن نستنتج بشيء من الحذر أن توليه القضاء كان في السنوات ما بين (١١٧٠ هـ - ١١٨٤ هـ ١٧٥٦ - ١٧٧٠) من عهد الشريف محمد بن أحمد ، حيث إنه كان قبل هذا التاريخ في سن التحصيل العلمي أي لم يتجاوز العشرين عاماً إلا بعام واحد ، ومن المستبعد أن يتولى منصب القضاء فيها . وكما أن تاريخ توليه المنصب مجهول لدينا ، فإن تاريخ نزوله عنه مجهول أيضاً ، فلم تبين المصادر التي بين أيدينا تاريخاً دقيقاً لذلك ، غير أن الفوضى السياسية التي ضربت أطناها في المخلاف السلیماني بعد وفاة الشريف محمد بن أحمد أدت إلى نزوله عن هذا المنصب . ففي معرض حديثه عن حوادث سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م في كتابه " نزهة الظريف في حوادث دولة أولاد الشريف " يخبرنا القاضي أن الشريف الحاكم (حسن بن أحمد) قد اعتقله هو وأخوه أحمد بن حسن البهكلي وأودعهما قلعة أبي عريش قرابة عام من الزمن وذلك لأمر لم يرتضها الشريف الحاكم منهما ملخصها : أن أحمد بن الحسن البهكلي توسط بين بني يام وبين الشريف الحاكم وقد قضى أحمد بن الحسن في وساطته بأن يتحمل الشريف حسن الحقوق الواجبة لبني يام لتسكن ثائرتهم ، فكان في هذا إرهاب مالي للشريف حسن^(٢) ، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل استعاد القاضي منصبه بعد

(١) الحسن بن أحمد عاكش . مصدر سبق ذكره ص ١٩٤ .

(٢) عبد الرحمن بن حسن البهكلي . " نزهة الظريف في حوادث دولة أولاد الشريف " ، أحداث سنة ١١٨٩ ، ص ٩

هذا التاريخ ١١٨٩هـ/١٧٧٥م ، أم أنه اكتفى بالتعليم في المنطقة ؟ لا فلك إجابة محددة لمثل هذا السؤال ، فمن المستنتج حسابياً أن القاضي عبد الرحمن كان يبلغ من العمر عند إيداعه في السجن ؛ وبالتالي عزله من منصب القضاء - كان يبلغ واحداً وأربعين عاماً أي أنه في قمة نضجه الفكري والبدني ومن المستبعد أن لا يستفاد من مثله في تولي مهمة القضاء في هذه المنطقة ؛ لذا فمن المحتمل أنه قد عاود إشغال مهام المنصب بعد إزاحه الشريف حسن من منصبه . ومن المعروف تاريخياً أن هذه الحقبة من تاريخ المخلاف السليماني كان الحكم دولة بين العديد من أفراد أسرة آل خيرات تبعاً لتهيؤ الظروف ، وكان آخرهم في الحقبة (١١٨٤ - ١٢٠٤هـ / ١٧٧٠ - ١٧٨٩م) الشريف يحيى ابن محمد بن أحمد .

القاضي عبد الرحمن البهكلي ومؤلفاته التاريخية :

لقد خلف لنا القاضي عبد الرحمن مؤلفين تاريخيين على درجة كبيرة من الأهمية هما : خلاصة المسجد في دولة الشريف محمد بن أحمد وذيله بـ نزهة الظريف في دولة أولاد الشريف . وتكمن أهمية هذين الكتابين في أنهما المصدران الأساسيان لتاريخ المخلاف السليماني في الحقبة ١١٥٤-١٢٠٤هـ / ١٧٣٢ - ١٧٨٩م وعنهما أخذ كل من تحدث عن تاريخ المنطقة فيما بعد.

وفيما يلي من سطور نستعرض بإيجاز ما ورد في كتابي القاضي عبد الرحمن بن

حسن البهكلي :

أولاً : خلاصة المسجد :

لقد أرخ القاضي عبد الرحمن في هذا الكتاب سنوات حكم الشريف محمد بن أحمد لأبي عريش والمخلاف السليماني في الحقبة ١١٥٤-١١٨٤هـ. فقسم كتابه إلى قسمين: المقدمة، وفيها تحدث بعد خطبة الكتاب عن نسب آل أسرة خيرات، وسبب خروج خيرات

من مكة إلى المخلاف السليماني ومن ثم تحدث بصورة موجزة تبعاً لندرة المعلومات عن حقبة حكم الشريف أحمد بن محمد ، التي يمكن أن يعول عليها الكاتب .

وقد أشار المؤلف إلى ذلك حين قال: (وقد جعلت ما جمعته مختصاً بالمتفقات في دولة حي مولانا الشريف الرئيس الأمجد عز المعالي محمد بن أحمد بن محمد ، ورفحت طرفاً يسيراً مما سلف في أيام والده الشريف أحمد لفوات أثر ما جرى من الحوادث في أيام دولته عني ؛ إذ وقوع جلها كان قبل إبرازي في عالم الوجود ، وأقلها في أيام حدثاتي وصغر سني ، وعدم احتفاء المميزين من أهل العصر بتقييد ما وقع في دولته من الأمور ، فلم يصل ذلك إلي من طريق تسكن إليها النفوس وتنشرح لها الصدور فرأيت جانب الإعراض عن ذلك أرجح وترك الخوض مع عدم اليقين أنفع وأصلح) ^(١) .

وقد ذكر المؤلف في هذه المقدمة تراجم بعض علماء المنطقة خاصة من انتسب منهم إلى أفراد أسرته كالقاضي علي بن عبد الرحمن البهكلي ، وتحدث إضافة إلى ذلك عن أوجه إعراب كلمة لا جرم والآراء المختلفة في ذلك .

أما القسم الثاني من الكتاب وهو الذي يمثل الموضوع الأساس فخصه بما اطمأن إليه من أخبار حدثت في زمن الشريف محمد بن أحمد ، وقد استهل المؤلف حديثه بالإشارة إلى الصعوبات التي واجهت الشريف محمد منذ أيام حكمه الأولى والمتمثلة في خلافه مع الشريف أحمد بن خيرات القطبي ، وما تمخض عن هذا الخلاف من حرب بين هذا الشريف وحلفائه من بني الحارث ، وبين الشريف محمد بن أحمد وحلفائه من بني يام ، انتهت بانتصار الشريف محمد .

كذلك أشار المؤلف إلى اعتراض بعض أكابر عوائل المخلاف السليماني على سياسة الشريف محمد بن أحمد ، وما تبع هذا الاعتراض من تحويل أمر عمالة المخلاف السليماني عن

(١) عبد الرحمن بن حسن البهكلي . خلاصة العسجد في دولة الشريف محمد بن أحمد ، ص ٣ .

الشريف محمد بن أحمد إلى عمه الشريف حوذان ، ورفض الشريف محمد الإذعان لهذا الأمر ونجاحه في المحصلة النهائية من تثبيت حكمه بعد قتله للشريف حوذان غيلة في مجلسه. ويمضي المؤلف في سرد الأحداث تباعاً حتى ينتهي بأحداث سنة ١١٨٤هـ ، وذلك حين انتقل الشريف محمد بن أحمد إلى جوار ربه . ومن ثم الإشارة الخاطفة إلى الصراع على السلطة بين أبنائه ، وهذا ما سيفصله في كتابه الثاني نزهة الظريف.

ثانياً : نزهة الظريف في دولة أولاد الشريف :

لقد أراد القاضي عبد الرحمن أن يجعل من كتابه نزهة الظريف في حوادث دولة أولاد الشريف ذيلًا لسابقه خلاصة العسجد في دولة الشريف محمد بن أحمد. فغطى حديثه فيه أهم الفعاليات التي ارتآها المؤلف في الحقبة من ١١٨٥-١٢٠٤هـ.

وقد وضع القاضي عبد الرحمن ذلك في مقدمة كتابه حين قال: (وعزمت على ذكر الحوادث الحادثة في دولة أولاد الشريف من الوقائع الكبار قصداً لتنبيه الغافل وإرشاداً للغريب الجاهل متجنباً الإقذاع ، ضارباً صفحاً عما تنفر منه الطباع والأسماع ، غير متعرض لأحد بأذى من المخلوقين ولا متتبع لفرد من أفراد المؤمنين، ومن الله أستمد الإعانة والتوفيق والهداية إلى أوضح طريق ، وأسأله أن يكفيني شر كل ذي شر ، وأن يجعل عملي عمل من صلح وبر، إنه حفيظ رقيب سميع مجيب لا إله غيره ولا خير إلا خيره وهو حسبي وكفى ونعم الوكيل)^(١) .

وقد استهل المؤلف كتابه بذكر أول من تولى الحكم من أولاد الشريف محمد بن أحمد، وهو الابن الأكبر الشريف أحمد، وقد ألمح المؤلف إلى ضعف شخصية هذا الحاكم إلماحاً حين وصف تزايد مطالب إخوته عليه بحقوقهم الخاصة معقبات على ذلك بقوله : إن ذلك لم يكن مألوفاً زمن والده.

(١) عبدالرحمن بن حسن البهكلي . نزهة الظريف في دولة أولاد الشريف .

ويواصل القاضي عبد الرحمن سرد الأحداث التاريخية في المخلاف السليماني بصفة عامة ومدينة أبي عريش بصفة خاصة معطياً صورة واضحة لما كانت عليه أوضاع دولة أولاد الشريف من ضعف وتدهور بعد وفاة والدهم الشريف محمد ؛ إذ ظلت أهواء هؤلاء الأبناء المحرك الأساس لتصرفاتهم، فغدت مدينة أبو عريش تبعاً لذلك في الحقبة ١١٨٥- ١٢٠٤هـ محطاً لغارات القبائل المطالبة بحقوقها لدى أولاد الشريف، وعلى وجه الخصوص فصائل من قبيلة يام التي كانت تعد العضد الأساس لحكم الشريف محمد وأبنائه . وضربت المنطقة بصفة عامة الفوضى السياسية وعدم الأمن والأمان فيها تبعاً لذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف في كتابه لم يكتف بذكر الأحداث السياسية لمنطقة المخلاف السليماني ، بل تعداها بالحديث عما وقع بالحجاز واليمن من أحداث سياسية ، وذلك بحكم مجاورتهما للمخلاف السليماني، ولعل المؤلف في ذكره لهذه الأحداث كان يلمح إلى ارتباط تواريخ هذه المناطق بعضها ببعض بحكم التجاور أولاً وبحكم أن الأسر الحاكمة في كل من هذه المناطق كانت تنتمي إلى السلالة الهاشمية والتي يتضح من خلال سياق الكتابين مدى تقدير الكاتب لها. كما أن الكاتب حرص على تضمين مؤلفيه العديد من تراجم النابهين في هذه المناطق إضافة إلى نابهي منطقة المخلاف السليماني.

ولعل المؤلف أراد للكتابين أن يكونا شاهدي عصرهما ؛ لذلك نراه يناقش إلى جانب القضايا السياسية القضايا الاجتماعية كالمجاعات التي حدثت في المخلاف وما ترتب عليها من آثار اجتماعية ظهرت في السنوات التي يؤرخ لها ، وذلك إما نتيجة للحروب أو للعوامل الطبيعية القهرية.

ويلاحظ القارئ لعمل القاضي عبد الرحمن مدى تباين العاملين من حيث الأسلوب، وحسن العناية . فقد حرص المؤلف في الخلاصة مناقشة العديد من القضايا الفكرية والأدبية والفقهية إلى جانب عنايته بموضوع الكتابة الأساس ؛ وهو تاريخ سنوات حكم

الشريف محمد بن أحمد، وعرض ذلك كله بأسلوب أدبي جميل تداخلت فيه اللغة الفصحى مع اللهجة المحلية تداخلاً قليلاً لا يؤدي في أي من فقرات الكتاب إلى إمكانية سوء فهم القارئ للمعنى المراد ؛ وجاء كتاب نزهة الظريف أقل من سابقه فيما احتواه من الاستطرادات الأدبية والفكرية والفقهية ، وجاء أسلوب المؤلف في العديد من فقراته مضطرباً بحيث تداخلت اللهجة المحلية مع الفصحى للدرجة التي قد تؤدي إلى غموض المعنى المراد في ذهن القارئ^(١).

ولعل التباين الواضح في عناية المؤلف بكتابه، يعود إلى اختلاف موضوع الكتابين: فقد كان موضوع الحديث في الكتاب الأول (الخلاصة) شخصية واحدة محورية تمثلت في شخص الشريف محمد بن أحمد وتمحورت جميع الأحداث حوله. وقد أعطى هذا التوحد في الموضوع الأساس المؤلف متسعاً ومجالاً للحديث عن قضايا ثقافية وفكرية يمكن لها أن تبعد الكتاب عن جفاف الأحداث السياسية وتضفي بعض الإمتاع الفكري على عكس ما كان عليه الحال في الكتاب الثاني (نزهة الظريف) حيث كان الحكم دولة بين العديد من أفراد أسرة آل خيرات، الأمر الذي أدى إلى انشغال مؤرخنا بمحاولة تدوين الأحداث المتسارعة والمتنوعة تبعاً لتعدد الحكام الذين تحدث عنهم الكتاب . ولا شك أن حقبة الاضطراب السياسي التي عاشتها المنطقة إبان حكم أولاد الشريف محمد بن أحمد قد انعكست ظلالها على القاضي عبد الرحمن فظهرت آثار ذلك في كتابه نزهة الظريف .

منهجه في التأليف :

لقد انتهج القاضي عبد الرحمن نمط التدوين الحولي للأحداث التاريخية، وهو النمط الذي كان شائع الاستعمال في زمانه ومكانه، فلم يكن مؤلفنا إذاً بدعاً بين مؤرخي المنطقة. ومن المعروف أن هذا النمط في التدوين يتيح للمؤلف أن يتشعب بالحديث في

(١) انظر : نزهة الظريف ، ص ٢٢ . ٢٤ . ٢٦ . ٢٨ . ٣٠ وغيرها .

كتابه عن موضوعات قد لا تمت بصلة من قريب أو بعيد للموضوع الأساس الذي هو جوهر الكتاب . لذلك تعددت الموضوعات التي تطرق لها المؤلف في كتابيه وتنوعت ما بين تراجم للنابيين، ومناقشة لقضايا فكرية وأدبية ودينية واجتماعية إلى جانب الموضوعين الأساسيين وهما : حكم الشريف محمد بن أحمد في الخلاصة وحكم أبنائه في نزهة الظريف. وقد نتج عن انتهاج القاضي عبد الرحمن نمط التدوين هذا أن جاءت بعض أحداث الكتابين مبعثرة بين الصفحات تبعاً لتسلسل حدوثها الزمني . فإذا ما تطرق بالحديث مثلاً عن حادثة ما استمرت لعدة سنوات فهو يشير إليها سنة وقوعها، ثم يتحدث عن موضوع أو موضوعات أخرى حتى يأتي بالحديث على السنة التي انتهى فيها هذا الحدث فيعود لذكره .. وهكذا مما يفقد الموضوع الذي يتحدث عنه وحدته ، ويؤدي بالتالي إلى عدم متابعة القارئ للموضوع متابعة جيدة . مثال ذلك : ما ذكره المؤلف في الخلاصة عن الخلاف الذي نشأ بين الشريف محمد بن أحمد وابن عمه الشريف ظافر بن الحسين، فبدلاً من أن يسترسل المؤلف في سرد هذا الخلاف حال التعرض له، جاء حديثه عنه مقطعاً حسب تسلسله الزمني^(١).

لقد أراد القاضي عبد الرحمن أن يغطي بمؤلفاته التاريخية الأحداث السياسية للمنطقة في الحقبة التي أعقبت خروج الشريف أحمد بن غالب من المخلاف السليماني إلى مكة المكرمة حوالي سنة ١١٠٥هـ، ويكمل ما بدأه مؤلف كتاب العقد المفصل بالنوادر والغرائب الحادثة في دولة الشريف أحمد بن غالب، وذلك إيماناً منه بضرورة تدوين الأحداث التاريخية ؛ إلا أنه لم يتمكن من تحقيق هذه الرغبة لندرة المصادر التي يمكن أن يعوّل عليها. وقد أشار مؤلفنا إلى ذلك في مقدمة الخلاصة حين قال: (وإلا فقد أردت أن أجعل هذا الأنموذج مكملاً للعقد المفصل بالنوادر والغرائب الحادثة في دولة الشريف أحمد بن

(١) انظر : خلاصة العسجد ، ص ٩٥-١٢٨.

غالب) .. إلى أن قال: (وحيث لم أجد ما يعينني على التكميل لذلك التاريخ الجليل مما يجلب إليّ الصحيح من الأقاويل، فاختصرت على ما ذكرته مما تحققت وعرفته سائلاً من الله سبحانه الإعانة والوقاية والرعاية والحماية) (١).

ويؤكد القاضي عبد الرحمن حرصه على تخير الأحداث التي اعتمد تدوينها في مقدمة الخلاصة حين قال : (وقد جعلت ما جمعته مختصاً بالمتفقات في دولة حي مولانا الشريف الرئيس الأمجد عز المعالي محمد بن أحمد) (٢).

وقد حرص مؤلفنا على بذل الجهود المضنية في جمع معلوماته إما من صدور معاصريها أو مما كتب من أحداث واطمأن القاضي إلى تدوينه بعد نقده ومقارنته مع ما توافر له من معلومات من مصادر أخرى. ولعل في هذا ما يفسر لنا ما قصده المؤلف من قوله : (وجعلت ما جمعته مختصاً بالمتفقات في دولة حي مولانا الشريف ..) إذ إنا لا نعلم على وجه اليقين ما هي هذه المتفقات : أهى ما اتفقت عليه المصادر المكتوبة أم ما اتفق عليه الثقات من الرواة المعاصرين للمؤلف أم ما كان متفقاً من الأحداث مع بعضه بعضاً منسجماً مع ما عاصره المؤلف . ومن المرجح لدينا استبعاد التساؤل الأول والأخذ بما رآه المؤلف وعاصره وما أخبره به الثقات من الناس ، يعزز هذا من وجهة نظرنا ما تكرر من عبارات : أخبرني من وثقت بخبره ، وقال لي ، والشائع ، إلى غير ذلك مما تكرر من مثل هذه العبارات على مدار صفحات الكتابين . ولا يخفى ما بذله المؤلف من جهد كبير في الاطلاع على المصادر المكتوبة المعاصرة له إن وجدت ، أو أخذ العلم من شهود العيان ممن يثق بوعدهم وصدقهم ، وقد وضع مردود ذلك على ما ورد في كتابيه من معلومات ثمينة عن المخلاف السليماني بصفة عامة وعن عهد الشريف محمد بن أحمد وأولاده بصفة خاصة.

(١) عبد الرحمن بن حسن البهكلي . خلاصة العسجد ، ص ٣-٥ .

(٢) عبد الرحمن بن حسن البهكلي . خلاصة العسجد ، ص ٣ .

وعلى الرغم من أن المؤلف قد كتب كتابيه تحت أعين هؤلاء الحكام، وعلى الرغم من ارتباط المؤلف وبعض أفراد عائلته بروابط ودية وثيقة مع بعض من أفراد الأسرة الحاكمة؛ إلا أن هذا لم يمنعه أن يكون منصفاً في كتابيه محايداً في مواقفه من الفرقاء وإن كانت بعض عباراته تنم عن تعاطف أدبي مع الشريف محمد وأبنائه من بعده . فمن المرجح لدينا أن كتاب خلاصة العسجد قد كتب أو تمت كتابة أجزائه بعد سنة ١١٩٢هـ، أي بعد وفاة الشريف محمد بن أحمد بحوالي ثماني سنوات على أقل تقدير، يدفعنا إلى ذلك ما ورد في الخلاصة نفسها ص ١٥٦ (وبعد وفاة السيد صفى الإسلام خلفه في تلك الجهات أخوه الهمام الصمصام وجيه الملة عبد القادر بن محمد بن الحسين بن الإمام فقام في مقامه بما يعاند به أمثاله من فضلاء الآل فقبض عليه أخوه مولانا السيد صارم الإسلام إبراهيم بن محمد بن الحسين وأودعه الحبس بجبل كوكبان فهو حال رقم هذه الأسطر باق بالأسر).

وإذا ما علمنا أن هذا السيد كان قد سجن سنة ١١٩٢هـ ترجع لنا أن تدوين الخلاصة كان في هذه السنة أو فيما بعدها من سنوات.

يضاف إلى ذلك بعض القرائن الأخرى التي تفيد بأن الخلاصة كانت قد كتبت جميعها أو على أقل تقدير معظم أجزائها بعد وفاة الشريف محمد بن أحمد أي بعد سنة ١١٨٤هـ. من هذه القرائن ما ورد في ص ١٢٣ من الخلاصة عند ذكر أحداث السنة السادسة والسبعين حيث أورد المؤلف (وفيها وردت إلى الشريف رحمه الله ..) فعبارة رحمه الله تقتضي بالضرورة أن هذه الأحداث دونت بعد وفاة الشريف محمد بن أحمد سنة ١١٨٤هـ.

فإذا بنينا على أن الخلاصة كتبت بعد وفاة الشريف محمد بن أحمد، تبدى لنا أن في هذا تحريراً للكاتب من ضغوط الحديث عن شخصية قوية معاصرة لا يأمن بطشها، وإن كانت الكتابة قد تمت في عهد أبنائه إلا أن هؤلاء الأبناء بشهادة المؤلف في أكثر من موضع من كتابه نزهة الظريف افتقدوا للشخصية المهابة التي كانت لوالدهم. ولعل هذا ما ساعد المؤلف على أن يبدي نقده الهادئ على عقوبة الخازوق التي استحدثها الشريف

محمد بن أحمد في المخلاف السليماني حيث قال: في معرض حديثه عن أحداث السنة الثانية والثمانين فيها أوجد الشريف العقوبة لمن يريد عقابه بالخازوق، عمله له بعض الصناعات من الحديد والخشب طوله في الهواء قريب من قامته الرجل، وطرفه في غاية الحدة والنفوذ، فيقع عليه من يراد تعذيبه والعياذ بالله فينفذ في دبره حتى يخالط أمعاءه في جوفه فإذا نزع عنه الإنسان مات، ومهما دام جالساً فالحياة ملازمة له، وفعل ذلك ببعض عبيده فعاش ثم عقبه رجلان فماتا. وعلق مؤرخنا بما يلي: فكانت هذه فاجعة عظيمة لا تؤلف ولا تعرف في هذه الجهات نسأل الله السلامة والنجاة من أهوال يوم القيامة . وقد شرع الله سبحانه عقوبات الذنوب فلم يكلها إلى جاهل أو حكيم فقال في محكم كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١) [المائدة ، الآية : ٣٣] .

وعلى الرغم من محاولة المؤلف إظهار حياديته النسبية فيما يذكره من أخبار؛ إلا أن تعاطفه مع الشريف يظهر جلياً في ميل المؤلف إلى التعميم وإخفاء بعض المعلومات التي قد تكون معلومة لديه ؛ إلا أنها تصب في غير مصلحة من يؤرخ لهم. مثال ذلك ما أورده المؤلف في الخلاصة عند إخباره عن أحداث السنة السادسة والخمسين بعد المائة والألف: حيث قال في ص(٢٨): (وفيها كثر الرفع من أكابر أهل المخلاف السليماني وعلمائه إلى الحضرة (الإمام) بالشكايات، وأن الشريف أهلك الرعية وسلك غير المسالك الشرعية، وتعدى وظلم، وتجبّر وغشم، ولم يقبل نصائح النصحاء، ولا راعى جناب الأفاضل والعلماء إلى غير ذلك من الأمور التي لا يتسع للإتيان على جميعها هذا المسطور ..). فعلى الرغم من إشارته إلى أن من كتب هذه الشكاوى كانوا من أكابر أهل المخلاف وعلمائه ؛ إلا أن

(١) خلاصة العسجد ، ص ١٥٢-١٥٣.

مؤلفنا مال إلى التعميم والتلميح دون التصريح، فلم نعرف حقيقة هذه الشكايات أو موقف المؤرخ منها، واكتفى المؤرخ بذكر ... (إلى غير ذلك من الأمور التي لا يتسع للإتيان على جميعها هذا المسطور) .

ومن قرائن تعاطف المؤرخ مع من يؤرخ له، وخاصة الشريف محمد بن أحمد: وصفه وتصويره لحالة خروج الشريف محمد من أبي عريش بعد هزيمته من قبل عمه الشريف حوذاً، كخروج الأبطال المنتصرين ؛ حيث قال مؤرخنا: (ثم خرج من المدينة العريشية في الليلة الخامسة عشرة من الشهر المذكور، بأبهة مشهورة وأعلام منشورة قاصداً إلى نجارن لطلب الثأر مريداً لغسل دنس الغلب والعار منشداً لسان حاله مساعداً له بفعال:

لقد رمتني صروف الدهر عن كשב

بأسهم ماضيات عندها العطب

فلم تجدني جبناً حين تطرقني

ولا جزوعاً لدى البأساء استجب^(١)

ومن البديهي أن تكون أحوال خروج المهزوم من المدينة بغير الطريقة التي صورها لنا المؤلف ؛ إلا أن عاطفته الجياشة تجاه الشريف محمد دفعت له لأن يصور لنا خروج المهزوم كخروج المنتصر بأعلامه المنشورة ، بل إن مؤرخنا قد ذهب بعاطفته إلى أبعد من ذلك حين جعل جسارة الشريف محمد وشجاعته سبباً في الهزيمة من الأساس. فبدلاً من أن يشير المؤرخ إلى أن الشريف محمد لم يأخذ الحيلة الكاملة والحذر من أعداء تربصوا به من داخل الأسرة وخارجها، قال المؤرخ بأن الشريف إنما رحل من عنده من جند كان غالباً ما يستعملهم في أغراضه العسكرية، .. (لأنه كان شديد الشكيمة قوي العزيمة لا يزعزعه الوعيد ولا يرهبه لمعان الحديد).

(١) عبد الرحمن بن حسن البهكلي . خلاصة العسجد، ص ٣٥.

ولا يخفى مدى إلمام مؤرخنا بالموضوعات التي تطرق لها في كتابيه ، سواء كانت هذه الموضوعات جانبية تطرق إليها لإدخال المتعة على القارئ كالموضوعات الأدبية، والدينية، والاجتماعية المتكررة في تضاعيف كتابيه ، أو كان ذلك الإلمام متعلقاً بشخصية الشريف محمد بن أحمد وأعماله ، أو بالحقبة الزمنية لعهد أبناؤه ؛ ولعل ثقافة المؤرخ التاريخية وإلمامه بمستجدات الأحداث في زمانه تظهر جلية عند حديثه عن الأحداث السياسية لكل من الحجاز واليمن . حيث أملت عليه التعرض بالذكر لهذه الأحداث لترابطها ترابطاً مباشراً أو غير مباشر بما كان يجري في المخلاف السليماني من أحداث بدأت من هجرة أسرة آل خيرات إلى المخلاف وانتهاء بأحداث سنة ١٢٠٤هـ التي توقف عندها المؤرخ في نزهة الظريف.

وتظهر علمية مؤلفنا وأمانته جلية حينما يتعرض في كتابيه لبعض القضايا الفكرية فتراه يسند الآراء لأصحابها، ويوثق مصادر معلوماته بعد انتهائه من طرح موضوع المناقشة كما فعل عند مناقشته لاستعمالات كلمة لا جرم وأوجه إعرابها، ومناقشته لقضية الحسن والقبح عند الأشاعرة والمعتزلة^(١) إلى غير ذلك مما ناقشه المؤلف في تضاعيف كتابيه^(٢).

ونستطيع أن نخلص إلى أن المؤلف قد انتهج في كتابيه ما يلي:

- ١ - النمط الحولي لسرد الأحداث دون محاولة تحليلها تحليلاً تاريخياً زمنياً.
- ٢ - أن المؤلف أراد لكتابه أن يكون شاهدي عصرهما . فأشار إشارات متعددة إلى النواحي الاجتماعية ، والكوارث الطبيعية ، إضافة إلى تراجم للناهين من علماء وأعيان المخلاف.
- ٣ - الإشارة إلى الأحداث السياسية للمناطق المجاورة للمخلاف كالحجاز واليمن سواء ارتبطت تلك الأحداث بما يسوقه من أحداث محلية أم لم ترتبط ارتباطاً مباشراً ،

(١) انظر : الخلاصة ، ص ٨ ، ١٣٦.

(٢) انظر : خلاصة المسجد ، ص ٨ ، ٢٤ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ١٣٦ ، وغيرها.

كذلك الحال مع تراجم النابهين من أبناء تلك المناطق.

٤ - حرص المؤلف على تكوين وحدة معلوماتية متكاملة عن تاريخ المنطقة ، وذلك عند محاولته ربط أحداث المخلاف من سنة ١١٠٥ إلى ١٢٠٤هـ ؛ إلا أن عدم وجود ما يعينه على هذا المقصد جعله يقتصر على سرد أحداث المنطقة السياسية من ١١٥٦هـ إلى ١١٨٤هـ ، وما إكماله لسرد الأحداث السياسية بعد وفاة الشريف محمد بن أحمد إلا لتحقيق هذا الغرض.

٥ - دقة المؤلف في تدوين الأحداث الزمنية بأن يتخير من بين الأحداث المطروحة لديه ما اطمأن إلى صحته إما لثقلته بما رواه شهود العيان أو لمعاصرتة ومعاينته شخصياً لبعض من هذه الأحداث.

أسلوب الكاتب :

لقد كان القاضي عبد الرحمن بن حسن البهكلي أحد كبار شعراء وأدباء المنطقة في عصره، فكان من البديهي إذاً أن تتأثر كتاباته التاريخية بالنزعة الأدبية المتأصلة فيه. ونستطيع أن نلاحظ هذا التأثير في نقطتين بارزتين:

أولاهما : الصياغة الأدبية :

حيث انتهج الكاتب في كتابته الأسلوب الأكثر شيوعاً في عصره وهو أسلوب الكتابة المسجوع. والقارئ لكتابي القاضي عبد الرحمن يدرك كثرة ما ورد فيهما من استعمالات لأنواع البديع اللغوي: سجع، طباق، جناس .. الخ ؛ إلا أن السجع الوارد في أسلوب كتابة القاضي عبد الرحمن كان سلساً طبيعياً لا يلحظ فيه أثر التكلف المعيب. يضاف إلى هذا أن القاضي عبد الرحمن قد ضمن كتابيه العديد من الأبيات الشعرية، بعضها من تأليفه وأغلبها من مشهور الشعر العربي ، وذلك على حادثة أو التعقيب عليها وإيضاح موقفه منها. فضمن الخلاصة وحدها ما يقارب من مائتين وسبعين استعمالاً شعرياً ، تراوحت أبياتها بين البيت الواحد في معظمها والأكثر من خمسة أبيات في أقلها.

كما نلاحظ تناسب استعمال هذه الأبيات مع الحدث المذكور سابقاً لها أو لاحقاً بها تناسباً جيداً. ويستطيع القارئ أن يتلمس من بعض هذه الأبيات موقف المؤلف من الحدث الذي ذكرت لأجله. مثال ذلك: تصوير المؤلف لمقتل الشريف حوذان غيلة في مجلس الشريف محمد بن أحمد بإيعاز من الأخير. حيث أورد المؤلف البيتين التاليين :

قد كان يشفى بعض ما بي من أسي
لو طاح يوم الروع في الخيلين
هيهات أن يد الحمام قصيرة لو
هز مضطرد الكموب رديني

وإيراده لببت الشعر القائل :

ما كنت أحسب قبل نعشك أن أرى
رضوى على أيدي الرجال يسير

وذلك حال تجهيز الشريف حوذان وإخراجه ميتاً من داره. وفي هذا دلالة واضحة على تعاطف المؤلف مع هذا الشريف في هذا الموقف على الرغم من أن الذي كان وراء هذا القتل الشريف محمد بن أحمد الذي أרך له المؤلف في الخلاصة. كذلك الحال عند إيراده بيت الشعر القائل :

وكذا الكريم إذا أقام ببلدة

سال النضار بها مقام الماء

وذلك عقب ذكره لتولي الشريف علي بن محمد بن أحمد أعمال ضمد، فالبيت يوحي بأن اختيار هذا الشريف لهذا المنصب كان عملاً صائباً، وأنه بتولي هذا الشريف أعمال ضمد ستزدهر هذه البلدة.

ثانيهما : إيراده للعديد من القضايا اللغوية في كتاباته :

فإن كتابي القاضي عبد الرحمن (الخلاصة، والنزهة) قد اشتملا على العديد من

القضايا اللغوية والنكت الأدبية. مثال ذلك ما ذكره المؤلف في الخلاصة عن كلمة لا جرم والمبحثنان المتعلقان بلغاتها وإعرابها. فلم يأت ذكر هذه القضية اللغوية موجزاً ، بل جاء مشتملاً على الخلافات بين فقهاء اللغة في إعرابها مع توضيح أوجه الخلاف بين النحويين، وتوضيح وجهة نظره في القضية بتأييد رأي على حساب الآراء الأخرى . كذلك استطرد المؤلف عند ذكر اعتراض محمد بن أبي بكر المخزومي (الدماميني) على الشيخ خليل بن أبيك الصفدي (شارح لامية العجم) حول قول البحري في مدح بعض الرؤساء :

يوم أرسلت من كتائب آرائك

جنداً لا يأخذون عطاء

فيود الأعداء لو تضعف الجيش

عنهم وتصرف الآراء

واستعراضه لبعض آراء فقهاء اللغة في ذلك مع إبداء رأيه في نهاية الأمر ، مستطرداً بنكتة أدبية حدثت بين الأديب اليميني الرقيحي، والإمام المتوكل على الله القاسم بن الحسين .

لقد أدت هاتان الظاهرتان (الصياغة الأدبية ، وكثرة ذكر القضايا اللغوية) ، إضافة إلى كثرة ما ورد في الكتابين من تراجم للأعلام ، أدت - هذه جميعها - إلى أن تكون كتابة القاضي عبد الرحمن التاريخية كتابة حولية متشعبة شاملة للعديد من قضايا الفكر والثقافة التي قد تبعد القارئ عن زمان الأحداث السياسية التي خص بها الكتابين. وإن كان هذا لا يعني أن الكاتب لم يحدد موضوع كتابته، بل على العكس من ذلك فقد حدد الكاتب موضوعه في الكتابين تحديداً دقيقاً وتحدث عنهما بما أتيح له من معلومات ؛ إلا أن منهج الكتابة الحولي الذي سار عليه أتاح له الحديث عن الموضوعات التي يرى أنها قد تدخل المتعة والفائدة على القارئ .

كذلك فإن دراسة المؤلف الفقهية وشغله وظيفه القضاء في مرحلة من مراحل حياته تبدو واضحة في كتاباته التاريخية. فنجد على سبيل المثال لا الحصر يضمن كتاب الخلاصة الخلاف الحاد الذي احتدم بين الأشاعرة والمعتزلة حول مسألة القبح والحسن ، وهل الزنا حرم عقلاً أم شرعاً مع توضيح آراء الفقهاء في ذلك، كذلك تعددت استشاداته بالآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية في بعض المواضع من كتابيه للتقليل أو الرفع من شأن أمر كمسألة الإخراج من الأوطان . كذلك يتضح تأثير دراسة المؤلف الفقهية في اتخاذ بعض المواقف من بعض الأحداث الوارد ذكرها في كتابيه : من ذلك موقفه من استحداث الشريف محمد بن أحمد - المؤرخ له - عقوبة الخازوق لمن يريد عقابه كما سبقت الإشارة له ، وموقفه من ميل بعض جهلاء المخلاف إلى المشعوذ المعكوي ، حيث إنه بعد وصفه لمن يتبعه بالجهلاء أوضح أن الابتعاد عن جوهر الدين هو السبب في مثل هذا النزوع.

وأورد مؤلفنا في هذا السياق بعض الأدعية المأثورة عن الرسول ﷺ كقائده للقارئ بما يدفع البلاء ، من ذلك : هذا الدعاء الذي نقله عن كتاب الحيوان (يا الله يا واحد يا أحد يا موجود يا جواد يا باسط يا كريم يا وهاب يا ذا الطول ، يا غني يا فتاح يا رزاق يا علیم يا حلیم يا حي يا قيوم يا رحمن يا رحيم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حنان يا منان انفعني منك نفحة خير تغنيني فيها عن سواك يا غني يا مبدي يا معيد يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعال ما يريد أغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك واحفظني بما حفظت به الذكر وانصرتني بما نصرت به الرسل إنك على كل شيء قدير^(١).

ولعلنا نستطيع أن نستنتج من هذا أن مؤرخنا القاضي عبد الرحمن أراد ألا يقف

(١) عبد الرحمن بن الحسن البهكلي . نزهة الظريف في حوادث دولة أولاد الشريف، ص ٤٩ - ٥٠ .

موقف المتفرج الواصف لهذا الجهل ، فأنكره ووضع الحل الذي يراه مناسباً ، بإيعاز من خلفيته الدينية.

وعلى الرغم من أن القاضي عبد الرحمن بن حسن البهكلي كان أحد أبرز أدباء المخلاف السليمان في عصره ؛ إلا أن القارئ يلحظ أن كتاباته التاريخية كانت مزيجاً بين اللهجة المحلية واللغة الفصحى. ولعل هذا النهج في الكتابة كان هو السائد في زمانه ومكانه، ويستطيع المتتبع لتاريخ المنطقة أن يلحظه في معظم كتب تواريخ المنطقة. ولسنا في هذا المجال بصدد تتبع التراكيب اللغوية واستعمالاتها لدى المؤلف ولكننا نسوق بعض الأمثلة التي قد تعين القارئ على إدراك نمط الكتابة في عصر المؤلف.

فمن حيث المفردات اللغوية فقد استعمل الكاتب بعض الكلمات التي نراها في زمننا هذا في غير مواضع استعمالها الصحيح. وتستوقفنا بعض من استعمالات هذه الكلمات لدلالاتها التاريخية مثل: ودخل قرية الدرب فاستباح النهب والسلب.

فمن منظورنا المعاصر أن كلمتي السلب والنهب لا تتفقان مع أفعال الحاكم الشرعي للمنطقة، خاصة وأن المؤلف قد وصفه بأوصاف حميدة في تضعيفات كتابه.

كذلك أورد المؤلف كلمات الشهادة، الجهاد، الخلافة، وذلك في غير مواضعها التي يتوقع القارئ أن تستعمل فيها .

وفيما يلي من سطور نستعرض بإيجاز بعضاً من تراكيب الجمل، التي تميزت بها كتب تواريخ المنطقة وظهرت جلية في مؤلفات القاضي عبد الرحمن، إضافة إلى بعض المفردات اللغوية:

يستطيع القارئ لمؤلفات القاضي عبد الرحمن التاريخية أن يلحظ بسهولة مدى تداخل كلمات غريبة عن الاستعمال العربي الفصيح : كأن تكون كلمات فارسية أو أن تكون كلمات هي أقرب إلى اللهجة المحلية منها إلى الفصحى، مثال ذلك :

- حي : وهي كلمة استعملها المؤلف جرياً على عادة مؤلفي اليمن عند الحديث عن أحد كبارهم.
- جوامك : وهي كلمة فارسية الأصل ويقصد بها: المكافأة أو الأعطية.
- خلائق : جماعة من الناس ولعلها مشتقة من خلق.
- خط : رسالة أو مكتوب.
- كتب : بمعنى رسائل.
- لقياً : بمعنى استقبال رسمي.
- معاليم : مبالغ مقدرة.
- محطة : جماعة من الجند، جندوا للحرب.
- ریش : اختلال في الأمن.
- طرح : بمعنى حل، عسكر أو خيم أو نزل.
- تريض : بمعنى استراح لبرهة من زمن.
- زلج : أعطى أعطيات.
- ويستطيع القارئ أن يلحظ بعض التراكيب اللغوية التي تختلف عن النمط العام في الصياغة الفصحى، من أمثلتها:
- فإنه غاية ما قاله في حين أن السائد للفصح هو: فإن غاية ما قاله.
- وأنشأت في ذلك البستان عند أن طلب مني في حين أن السائد في الفصحى: وأنشأت في ذلك البستان عندما طلب مني.
- وما رأوه فيه الصلاح من البقاء أو التعطيل كان العمل عليه والرجوع إليه، في حين أن السائد: وما رأوا فيه الصلاح من البقاء أو التعطيل كان العمل به والرجوع إليه.

ومما نهدف إليه ونحن نسوق هذه الأمثلة هو إعطاء صورة للاستعمالات اللغوية في عصر المؤلف ، ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال انتقادنا لأسلوب الكاتب أو نقدنا لنمط كتابته.

مصادر المؤلف :

لقد تنوعت المصادر التي استقى منها القاضي عبد الرحمن معلوماته بتنوع الموضوعات التي تطرق إليها في كتابيه. وتراوحت هذه المصادر ما بين مقروء ومسموع أو ما عاصره المؤلف من أحداث فكان شاهد عيان عليها. ولعل مكانة المؤلف الاجتماعية وشغله منصب القضاء لأسرة آل خيرات في حقبة من حقب حياته، إضافة إلى ما تمتع به من علاقات قوية مع بعض من متخذي القرار من أفراد هذه الأسرة جعله في موضع يمكنه من الاطلاع على بعض المعلومات التي لم تكن ميسرة لغيره. وقد ذكر مؤلفنا صراحة بعض مصادره المكتوبة التي تتحدث عن تاريخ منطقة المخلاف السليماني في الحقبة السابقة لعصره، كذكره لكتاب العقد المفصل بال نوادر والغرائب الحادثة في دولة الشريف أحمد بن غالب الذي ألفه الشيخ علي بن عبد الرحمن بن الحسن البهكلي، وكتاب الجواهر الحسان في أخبار أبي عريش وجازان لمؤلفه القاضي أحمد بن المقبول الأسدي.

ولا نعلم يقيناً أكانت هناك مصادر أخرى مكتوبة استقى منها مؤلفنا معلوماته عن التاريخ المحلي ولم يشر إليها ؟ أم أن هذين المصدرين كانا هما المصدرين الوحيدين اللذين اعتمد عليهما في هذه المرحلة التي يؤرخ لها ؟ .

أما في مجال سرده للأحداث السياسية المعاصرة له، فكانت مصادر مؤلفنا في الغالب مسموعة منقولة عن شهود عيان إن لم يكن شاهداً. يدل على ذلك العديد من الكلمات الواردة في تضاعيف الكتابين ككلمات: أخبرني، حدثني مشافهة، وعرفت منه شخصياً .. إلخ . ولا يقتصر هذا النوع من المصادر على الأحداث المحلية، بل يتعداها إلى أحداث اليمن والحجاز. وبمقارنة ما ذكره المؤرخ من أحداث لهذين القطرين وما كتب في تواريخهما لذات

الحقبة نجد أن ما أورده مؤلفنا على درجة كبيرة من الدقة، الأمر الذي يجعلنا نميل إلى أن مؤرخنا القاضي عبد الرحمن كان دقيقاً في اختياره لمصادره وأنه التزم حقيقة بما ذكره في مقدمة الخلاصة من تدوينه لما عرفه فقط ولعلنا نأخذ مثلاً لذلك ما ذكره القاضي عبد الرحمن من أحداث دارت بالحجاز إبان حقبة حكم الشريف مساعد بن سرور.

أما بالنسبة للقضايا الفكرية الجانبية الواردة في تضاعيف الكتابين فكانت مصادرها تتراوح بين الرسائل المتبادلة بين أدباء المنطقة وبين كتب الأدب المشهورة . فمن المراسلات مثلاً نقل إلينا القاضي عبد الرحمن محاكاة السيد علي بن عبد الرحمن البهكلي شعراً لأبيات الشريف قتادة بن إدريس، وقصة القاضي يحيى بن حسن الصعدي حينما أرسله الإمام لتقصي أحوال الخلاف بين الشريف محمد بن أحمد وبين أهل صيبا وكتاباتة لأبيات شعرية يستعطف فيها الإمام لإرجاعه إلى صنعاء. ومن القضايا الأدبية التي نقلها عن كتب التراث الشهيرة ما نقله عن أوجه إعراب لا جرم نقلاً عما كتبه السيد الفقيه عبد الوهاب الطنطاوي الأحمدي المصري، وما نقله عن أوجه الخلاف بين الشيخ خليل ابن أبيك الصفدي والعلامة الدماميني حول إعراب أبيات البحتري ، كما وردت في كتابيهما، إضافة إلى ما عقب عليهما به العلامة علي بن أقيرس . أن مؤلفنا كان حريصاً على توضيح كيفية الاقتباس - إن كان لفظياً أو كان بالمعنى - في ختام فقرات الاقتباس^(١).

أما بالنسبة لما أورده القاضي عبد الرحمن من معلومات حول مسألة الحسن والقبح عند الأشاعرة والمعتزلة وأوجه الخلاف بينهما ، فقد حرص مؤلفنا على تلخيص هذا الخلاف وعرضه بأسلوبه مع الإشارة إلى مواقفه في كتب الأصول الفقهية .

ولعلنا نستطيع أن نخلص في نهاية هذا المطاف إلى أن مصادر مؤلفنا في كتابيه قد انحصرت فيما يلي :

(١) عبد الرحمن بن حسن البهكلي . خلاصة العسجد . ص ٦٣ ، ١٤٥ .

- ١ - ما رآه وعرفه وخبره من أحداث عاصرها ، فكان شاهد عيان عليها والمصدر المخبر عنها.
 - ٢ - ما استقاه من مصادر أفعال الحدث كأفراد الأسرة الحاكمة وذلك بحكم علاقته الوطيدة بهم.
 - ٣ - ما استقاه من شهود عيان ثقات.
 - ٤ - ما حكته كتب تواريخ المنطقة عن الحقبة السابقة لموضوعي الكتابين.
 - ٥ - ما ورد في كتب الأدب والمراسلات الأدبية بين فقهاء وأدباء المنطقة.
- الخلاصة :**

نخلص مما سبق : أن مؤرخنا القاضي عبد الرحمن بن حسن البهكلي كانت له إسهاماته الفكرية الملموسة في منطقة المخلاف السليمانى ، وأن مؤلفاته التاريخية تعد المصدر الأساس لتاريخ المنطقة في الحقبة الزمنية الممتدة ما بين ١١٥٦-١٢٢٤هـ، ومنها استقى من خلفه في تدوين تاريخ المنطقة من مؤرخين . كما أن مؤلفاته هذه تجسد روح العصر الذي كتبت فيه من حيث أسلوب كتابتها ونمطه ومن حيث المناحي الفكرية والمذهبية التي كانت سائدة في عصر المؤلف. كما توضح كتابات القاضي عبد الرحمن التاريخية المكانة الاجتماعية المرموقة التي كانت تتمتع بها أسرة آل البهكلي في مجتمع المخلاف السليمانى ؛ تجسدت في تولي العديد من أبناء هذه الأسرة وظيفة القضاء في العديد من مدن وقرى المخلاف السليمانى.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي . بغية المستفيد في تاريخ مدينة زيد ؛ تحقيق عبدالله محمد الحبشي . - صنعاء : مركز البحوث اليمنية، د . ت .
- ابن منظور ، أبو الفضل محمد . لسان العرب . - بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٧هـ .
- أبو داهش، عبدالله محمد حسين . الحياة الفكرية والأدبية في جنوب البلاد السعودية ١٢٠٠ - ١٣٥١ . - ط ٢ . - أبها : النادي الأدبي، ١٤٠٦هـ .
- البهكلي، عبدالرحمن بن أحمد . نفع العود في سيرة دولة الشريف حمود ؛ تحقيق محمد بن أحمد عيسى العقيلي . - ط ٢ . - جازان : مطابع جازان ، ١٤٠٦هـ .
- البهكلي، عبدالرحمن بن الحسن . خلاصة العسجد في دولة الشريف محمد بن أحمد ؛ تحقيق هاني زامل مهنا . (دكتوراه) . لم تنشر بعد، مدرسة الدراسات الشرقية، جامعة درم ، بريطانيا، ١٩٨٦م .
- . نزهة الظريف في حوادث دولة أولاد الشريف . مخطوط . - جازان : المكتبة العقيلية .
- البهكلي، علي بن عبدالرحمن . العقد المفصل بالعجائب والغرائب في دولة الشريف أحمد بن غالب ؛ تحقيق محمد بن أحمد عيسى العقيلي . - جدة : دار البلاد ، د . ت .
- الجباسر، حمد . المعجم الجغرافي للبلاد السعودية . ج ٣ . - الرياض : منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، د . ت .

جحاف، لطف الله بن أحمد. درر نحرور العين في سيرة الإمام المنصور وأعلام دولته
الميامين - الرياض : مكتبة جامعة الملك سعود المركزية، قسم المخطوطات،
ميكروفيلم رقم ٧٠٣.

دحلان، أحمد زيني . خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام : تحقيق محمد أمين
توفيق - بيروت : دار الساقى، ١٩٩٣م .

زيارة ، محمد بن أحمد . نشر العرف لنبلأ اليمن بعد الألف ج. ١ ، -٠ صنعاء : مركز
الدراسات والبحوث اليمني . د.ت.

----- . نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر . ج. ١ ، ج. ٢ -٠
القاهرة : المطبعة السلفية ، ١٣٥٠هـ .

شرف الدين، أحمد بن حسين . دراسات في أنساب قبائل اليمن -٠ ط٣ - الرياض :
مطابع الفرزدق ، ١٤٠٥هـ .

الشوكاني ، محمد بن علي . البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج. ١ ، ج. ٢ -٠
بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر . د.ت .

عاكش، الحسن بن أحمد . حدائق الزهر في ذكر الأشياخ أعيان الدهر : تحقيق إسماعيل
البشري، ١٤١٣هـ .

----- . الديباج الخسرواني في أخبار أعيان المخلاف السليماني : تحقيق
إسماعيل بن محمد البشري (دكتوراه) . مدرسة الدراسات الشرقية . جامعة
دوم، بريطانيا ، ١٤٠٨هـ .

----- . عقود الدرر في تراجم علماء القرن الثالث عشر . مخطوط -٠ الرياض :
مكتبة جامعة الملك سعود . قسم المخطوطات . ميكروفيلم رقم ١٣٣٤ .

العقيلي محمد بن أحمد عيسى . الأدب الشعبي في الجنوب - . جازان : مطابع جازان ،
١٤١٠ هـ .

أضواء على الأدب والأدباء في منطقة جازان - . مكة : نادي مكة الثقافي
الأدبي ، د . ت .

البهاكلة علماء المخلاف - . مجلة العرب . مج ٧ ، ٨ ، (المحرم / صفر
١٣٩٥ هـ) .

التاريخ الأدبي لمنطقة جازان - . جازان : نادي جازان الأدبي ، ١٤١١ هـ

تاريخ المخلاف السليماني - . القاهرة : مطابع دار الكتاب العربي بمصر ،
د . ت .

محاضرات في الجامعات والمؤتمرات السعودية - . جازان : نادي جازان
الأدبي ، د . ت .

المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (مقاطعة جازان) - . الرياض : دار
اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٩ هـ .

العمري ، حسين بن عبدالله . مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني - . دمشق :
دار المختار للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠٠ هـ .

الغالبي ، سلوى سعد سليمان . الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم ودوره في
توحيد اليمن ١٠٥٤-١٠٨٧ (ماجستير) - قسم التاريخ - . جدة : كلية
الآداب والعلوم الانسانية - جامعة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٩ هـ .

الكبيسي ، محمد بن إسماعيل . اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية ، مخطوط ،
مكتبة جامعة الملك عبدالعزيز المركزية - قسم المخطوطات . رقم: ٢٨٩١ .

النعمان، عبدالله بن علي . العقيق اليماني في وفيات وحوادث المخلاف السليماني ،
مخطوط ، مكتبة حسن عبده الصميلي الخاصة .

----- . العقيق اليماني في وفيات وحوادث المخلاف السليماني ، مخطوط ،
مكتبة جامعة الملك عبدالعزيز المركزية - قسم المخطوطات .

النعمي، محمد بن حيدر . الجواهر اللطاف المتوج بهامات الأشراف من سكان صبيا
والمخلاف ، مخطوط ؛ مكتبة إبراهيم حسين الصميلي الخاصة .

الهمداني ،الحسن بن أحمد . صفة جزيرة العرب ؛ تحقيق محمد بن علي الأكوخ -
ط٣-٠٠ صنعاء : مركز الدراسات اليمني، ١٤٠٣هـ .